ووقفة مشدودة تشي بالأهمية والمكانة، توحي بصرامة ما، تؤكدها سترة عسكرية ألبانية مقصّبة، محبوكة على الجذع والخصر، لها ياقة عالية تُطَوِّق الرقبة. على رأس الولد طربوش تركي قصير يخفي ثلثي جبينه، وللطربوش شراشيب طويلة أشبه بذيل حصان.

قضى الولد أربع سنوات في فرنسا ثم عاد إلى مصر.

كم مرة زار باريس أو فيينا بعد ذلك؟ لا أدري تحديدا ولن أتوقف للبحث، سأنتقل مباشرة إلى زيارة بعينها إلى العاصمة الفرنسية قام بها بعد عودته بسبعة عشر عاما. لم يعد ولدا بطبيعة الحال. أصبح رجلا مربوعا له شاربان ولحية تغطي ذقنه وصدغيه، يرتدي سترة طويلة تطول ركبتيه وتزين صدرها خمسة أوسمة من الذهب الخالص، ثلاثة منها على شكل نجوم ثُمانيّة تتوسطها الأهلة، واثنان مرصعان بالأحجار الكريمة. يتقن الفرنسية والتركية، ويعرف العربية بدرجة أقل.

في تلك الزيارة التي تهمنا كانت العاصمة الفرنسية تشهد انقلابا معماريا يقوده شخص اسمه أوسمان، خطط لبلدية باريس الجديدة، هدم وقوّض واستبعد لحساب شوارع جديدة عريضة صارمة في خطوطها الهندسية، تقطعها الميادين المدورة، وتُجمِّلها حدائق عامة أقرب إلى غابات صغيرة، وإن كانت مزروعة ومنسقة، ثورة معمارية لم يغب عن القائم بها شيء، حتى المجاري بدت إنشاءً مدهشا يأخذون كبار زوار المدينة لمشاهدته.

أثناء رحلته التي زار فيها باريس ثم لندن ثم باريس مرة أخرى ثم الآستانة، أنعم عليه الباب العالي بلقب خديوي مصر، فعاد إلى عاصمة ملكه يحمل معه اللقب المدوّي وأحلاما جامحة في الهدم والبناء، وشكّل وزارة جديدة كلف فيها وزير أشغاله بتخطيط القاهرة الجديدة على غرار باريس. لم يطلب من وزيره تدمير المدينة القديمة، إذ كان في عجلة من أمره، يفكر في الاحتفال